

وبانتحال المذهب الأرثوذكسي بالقوة وما من أحد يفكر بتاتاً أن يحقق أحلام الثورة
الإفرنسية من حيث السياسة والاجتماع أو أمني المخالفة المقدسة الخيالية ولا يعمل هناك
غير القوة الوحشية ليس إلا ونلاحظ فقط أن التطرف الغربي قد ملأ الحكم الروسي
المطلق لإبادة أمم أوروبا المركزية البعيدة عن الاستبداد والفوضى وما شعارها إلا الترقى
والإصلاح الاجتماعي الرصين لها.

الشيخ إبراهيم الحوراني

تنمة ما في الجزء السابع

٤ نشره

أرهف المترجم به يراعه منذ الصبا فأجاد في الموضوعات التي دمجها به ولم يبق بحثاً لم
يتناوله بأسلته فتفنن في مقالاته تفنناً لا يجيد فيه إلا من كان مثله كثير الاطلاع متضللاً
من العلوم والآداب متقناً للمنقول والمعقول فتراه يذهب بعقل المطالع لكتاباته الوضيحة
البليغة كل مذهب وينحو به كل منحى فيمر على المدن والداكر ويريه الشوارع
والمنعطفات ويسدد خطواته في مناهج الحقيقة ويطير به في عالم الخيال ولكنه لا يتيه
بالقارئ ولا يضل سبيلاً بل يملأ مخادع حافظته صور تعابير بليغة ويمآن فكره موضوعات
مفيدة ويرشده إلى الصراط المستقيم ويطبع في مخيلته أصح الآراء وأسد الأفكار العنسية
الأدبية فيعود مطالع أبحاثه مستفيداً كل الاستفادة محرزاً ما يريد من الأبحاث والألفاظ
والمعاني مع تفنن في التعبير وخلوص من التعقيد وبساطة في التركيب ومن قرأ ما جادت
به قريحته من المقالات الرنانة في المجالات والجرائد والكتب شهد بصحة قولنا ولم يحمله
على الإطراء والتزلف فإننا وإن كنا من أصدقائه المخلصين فلسنا من مرديه الكاذبين

١٨٧٨ فلم تعد في جملة مخالفة من مخالفة من مخالفتها وكان سلسبوري يدعو هذه الحالة العزلة الرائقة بيد أن حرب البوير وعواطف الكراهة التي نالتها السياسة الإنكليزية في كل صقع وناد عدا النمسا أبانت لها أن هذه العزلة ليس فيها ما يشوق ويروق وكان. اسطول ألمانيا الحربي يزيد على الدوام حتى فاق أسطول فرنسا وكان بعد أسطول هذه بعد الأسطول الإنكليزي بعدده وعدده والتجارة الألمانية تفتح لها مصارف جديدة في العالم وبيننا كان يقال سنة ١٨٧٦ أن المصنوعات الألمانية غالية ورديئة ولكنها بالنسبة للمصنوعات الإنكليزية رخيصة وجيدة أصبحت تنافس الصناعات الإنكليزية حتى في إنكلترا منافسة شديدة ولم تر ألمانيا أن تكتم أمانيتها وصرح رئيس النظار البرنس بولوف في مجلس النواب أن ألمانيا تطالب أيضاً بأن تحيا على هذه الأرض ولقد كتبنا سنة ١٩٠٤ ما يأتي: تجري ألمانيا على سياسة لتحرز الأولوية بين الدول فإلى أين تستطيع أن تسير بدون أن تحدث لها مشاكل مع المسيطرين على العالم وهم اليوم خصومها هذا سر من أسرار المستقبل فاقضى لألمانيا أن تنزع من فكر إنكلترا فقط أنها الحاكمة المتحكمة في البحار وفي الاستعمار والعالم واستعمال عقد اتفاق بين المملكتين وكانت روسيا. مرتبكة أنواع الارتباك أن تباشر عملاً في آسيا. وفرنسا تحالف الشيطان على شرطان تكون اخلالاً ضد ألمانيا بل تحالف إنكلترا التي أورثتها سنة ١٨٩٨ عار الطرد من فاشودة. هكذا كانت الحال عند ما تولى ادوارد السابع زمام الملك في إنكلترا فرأى بعين البصيرة في الحال ما يجب مداولته وأيقن أن من الواجب تحويل أنظار روسيا عن الشرق الأقصى حيث يرجى أن يكون خطراً على السياسة الإنكليزية وإن يجذب بضع روسيا إلى الغرب يجعلها مناصبة لألمانيا وحليفها ولا شك أن مصلحة فرنسا كانت كذلك. ولهذا الغاية

ذهب ملك إنكلترا إلى ريفال في حزيران ١٩٠٨ فلم تلبث إيران وكانت منذ زمن طويل موضع الشقاق بين روسيا وإنكلترا أن تقاسمتها فجعلت منطقتين روسية وإنكليزية وأصبحت الأولية بذلك لروسيا في بلاد فارس. واهم من ذلك التقرب الذي وقع بين اليابان ومملكة القيصر من حيث النتائج. وعلى ذلك حدث تبدل تام في السياسة الإنكليزية عقيب استلام الأحرار أزمة الأحكام في إنكلترا وأصبحت المحالفة الثنائية وفقاً بدون أن تتقيد إنكلترا بمحالفة عسكرية مثل شريكها. حدث في خلال سنة ١٩٠٨ الانقلاب العثماني واستولى فتیان العثمانية على زمام الحكم في البلاد وضمت عقيب ذلك البوسنة والهرسك إلى النمسا والمجر وكانت روسيا أظهرت ارتياحها إلى هذا العمل بادي بدء ثم دفعته سياسة السير ادوارد غراي فأنشئت تدافع عن حقوق الدولة العلية ثم عن مزاعم الصرب فلم تنشب الحرب لأن ألمانيا عقدت العزم على الأخذ بيد النمسا وفرنسا منهكة فتنها الداخلية يتعذر عليها أتعاون معونة فعلية بحيث أصبحت روسيا وحيدة فولت منهزمة. ومع هذا تخلت النمسا لواء يكي بازار على مكانته الحربية لأطماع الصرب والجبل الأسود وهذه كانت جعلت مملكة وأخذ شبح الحرب العامة منذ ذلك العهد يبدو سنة عن سنة وحضت هولندا أوائل سنة ١٩١١ مرفأً فليسنج ففهم من ذلك أن النية عقدت لأقفال مجرى نهر السكوت الذي يجري إلى أنفرس ولم يصعب علينا أن نستنتج من ذلك أنه عقد تحلف فرنساوي إنكليزي من مضمونه أن تحتل إنكلترا احتلالاً عسكرياً هذه القلعة المهمة ومرفأها حين نشوب حرب بين فرنسا وألمانيا. فأنقلب الوداق الودي إلى محالفة عسكرية. وفي صيف تلك السنة دهش العلم أجمع لإرسال ألمانيا إحدى بوارجها العسكرية إلى أغادير على الشاطئ الجنوبي الغربي من مراکش وذلك

للدفاع عن المصالح الألمانية من احتلال فرنسا بإشهار الحرب بل هددت إنكلترا ومع هذا وقع اتفاق هذه المرة أيضاً فأخذت ألمانيا جزءاً من الكونغو الفرنسية تعويضاً عن مطالبتها. بيد أن المهمة انصرفت إلى اتخاذ الأسباب لفصل ألمانيا عن حليفها حتى إذا تخلى عنها الكافة يتعذر عليها أن تقاوم ضعفت أعدائها فأخفقت هذه الأعمال على المهارة المبذولة لدى حكومة النمسا واخر ومعلوم ما أعقب ذلك من ضم طرابلس وبرقة إلى إيطاليا ثم حرب البلقان التي أنتجت فقد الدولة العثمانية لولاياتها في أوروبا ثم ضعفت بلغاريا وتوسع صربيا كل ذلك جعل الدعوى إلى تأسيس دولة صربيا الكبرى مهياة الأسباب وجراً قاتل ولي عهد النمسا على ارتكاب جنابته في سراجية ويوم ٢٨ حزيران ١٩١٤ ومن جهة أخرى كان الاعتداء يعتمدون على المنازعات الداخلية في النمسا واخر. ويظهر لهم أن اختلاف الأحزاب السياسية في اخر والقومية في النمسا تسهل طريق تجزئة هذه الإمبراطورية المشنوية ولكن دلت النتيجة، هذا الرأي مغلط فقد يتنازع إخوان فإذا جاءهما ثالث غريب عنهما يتدخل في شؤونهما ينقلبان في الحال يداً واحدة عليه ولو لم يكن أعداؤنا من هذا الرأي لكانوا أحجموا عن مدهمتنا في عقر دارنا. تبين مما تقدم أن سلام العالم كان ضعيف الأركان منذ سنة ١٩٠٨ لتضارب المصالح الكثيرة والأهواء المتنوعة بحيث يتعذر وصف علاج بقطع آفة المرض الذي ابتليت به أوروبا. وعبثاً جرى القول في الصلح وفي وضع طريقة السلاح النسي و كان جثام الحرب العامة يضغط على الأرواح وبهذا المؤثر وافقت المجالس النيابية على تجنيد الملاين من الجند وصرف المليارات من النفقات وهي إعداد ما كان الإنسان لطولها ليصدقها إلى ذاك العهد ونرجو أن تكون كذلك في المستقبل بعد فلماذا فادت الممالك مفاداة عظمى

بالرجال والمال لو لم تكن في صدد حريق عالمي هائل؟ ذلك أن فرنسا تريد أن تستعيد ولايتين كانت فقدتهما وان تعود إلى المركز الذي كان لها قديماً وان روسيا تريد أن تكون الحاكمة على المضائق وتخضع لصولجان القياصرة الشعوب السلافية الذين يدينون بالمذهب الأرثوذكسي وان يابان تريد التوسع في أملاكها وتزيد ثروتها لإنشاء أسطول حربي أما نحن النمسا بين واخرمين والألمان والعثمانيين فقد دفعنا إلى الحرب لندافع عن كيانتنا فاضطررنا لنفادي بأمور ثم إلى إعلان الحرب. وربما قيل إن المسلمين بأجمعهم يقفون في مصاف الدولة العليا لتقاوم عدواًها القديمة روسيا وإنكلترا وفرنسا وهاتان الأخيرتان أصبحتا عدوتيهما وكانتا صديقيهما أما إنكلترا فان الداعي لها إلى إعلان الحرب هو الخوف من تخطي ألمانيا لها في مضمار الارتقاء فهي لا تريد أن ترتفع بل أن تخفض خصيئتها إن هذه الحرب هي حرب شعوب لا حرب أمراء ومع هذا فان مقتل ولي عهد النمسا وقرينته كان شرارة اتقدت بها النار بمواد غير ملتهبة كانت منبعثة من العالم اجمع. لا جرم إن نار ودنا أودرانا هي منذ عهد الباطنيين (القرن الثاني عشر) الشيعة السياسية التي كثيراً ما كانت تعتمد إلى القتل لبلوغ غايتها وكان الباطنية مسلمين متعصبين يسقيهم زعماءهم حشيشاً ليعتثوا بهم يسفكون دماء وقد حاربهم غير ما مر سلاطين السنجوقيين وفرسان الهيكل فأبادهم مؤخراً أبنا دينهم ممالك مصر ومن العبد أن يبحث في أوروبا في القرن العشرين عن عواطف للتضامن وخشي من هول الجريمة وما من رابطة تجمع خصومنا ومن العجب أن روسيا التي أبادت أمماً كثيرة تقف الآن موقف المخلص للشعوب الصغيرة بقتالها التسليح العام في جنب إنكلترا وفرنسا ولا وجه للبحث هنا عن الاتحاد السلافي والاتحاد الروماني فإن الاتحاد السلافي الأدبي قد فسد بالروسية الوحشية

ولذلك أحيل المطالع المتقيد على ماله من المقالات والخطب والمباحث وأفوض فيه أمر الحكم على المترجم بما يوحيه إليه ضميره الصادق وبصيرة النقادة المنصفة فطالع مقالات (عالم الحس الخيال) و (الكيمياء) و (العين) و (الشعر) و (القلب والعين) و (الظل) و (الشعر العربي والشعر الأوروبي) و (العالم المادي والعالم الأدبي) و (حكمة الأولين) و (فلكياته) و (والبلاغة) و (الكفاية) و (آراء جديدة في أجزاء المادة) و (الخنير والاختصار) و (غرائب الكيمياء) و (تاريخ الكرة الأرضية الطبيعي) و (الاختلاف في الآراء والعقائد) و (الجهل والهوى) و (الطبيعات والأديبات) و (ضرر العلم القليل) و (مساعداة الذاكرة) و (الصدى الطبيعي والصدى الأدبي) و (ألفينيقيون) و (أصل اللغات) و (قدرة العلم وعجزه) و (اختلاف تأثير العلة الواحدة باختلاف طبيعة المعلول) و (الماء القدماء بظلال ما كشفه المحدثون) و (الكهربائية وكرات النار الجوية و (الموضوع) و (استقر واستدل واحكم) و (مقاومة تنازع البقاء) و (الإنسان) وما شكل كل ذلك من المباحث المختلفة والتفتنات الرائقة وإذا تعذر على المطالع الوقوف على هذه الآثار الأدبية الرائقة فإتبعني أسهل له ذلك بانتخاب بعض فقرات كلامه: فمن قوله في خطبة (عالم الحس وعالم الخيال) ومن فوائد (الخيال) أنه نزهة المعتزل ففيه يرى الحدائق الغناء توقع عليها فيان الورق أطيب الألحان وتجري تحتها جداول زلال الذمى بنت إلهان وتحيط بمنابتها بواسم الأزهار كما يحيط بالمعاصم السوار. وترى مدافع الشواهد تقذف بلجين الماء على در الحصباء في الأودية الخضراء فترده امأة المهى وظمأ الطي فتصبو إلى الورد ولا تطفئ اواما فتتن وجدا وتنشد هياماً:

ألا قل لسكان وادي الحمى ... هنيئاً لكم في الجنان الخلود

أفيضوا من الماء علينا فيضاً ... فنحن عطاش وأنتم ورود

ثم إذا ملئت مشاهد النهار توجهت إلى مشاهد الليل وبدلت طلعة الشمس بمحيا سهيل
فتري هنالك النجوم درراً في باطن الخيمة الزرقاء والجرة نهماً عظيماً تدفق في حديقة
نرجس وفروعها جداول البطحاء وتري هناك تباين المؤتلفات. وائتلاف المتباينات
فتشاهد الطائر الواقع والذهب والراجع والخفي والظاهر والثابت والسائر والأسد بين
السرطان والعذراء والسرطان بين الأسد والجوزاء والأبراج والطوالع والأوافل فتري
العالمين على العلم الأصغر وتنسى أنك العالم الأكبر ثم تنتبه إلى المعتزل وإليه تبوء فتعلم
صحة قولهم: (الوحدة خير من جليس السوء) ثم قال في الخيال قولاً فلسفياً هو: ومن
فوائده انه معمل المتصرفة ومخترعها أما المتصرفة فعرّفوها بأنها قوة من قوى العقل الباطنة
شأنها تركيب الصور والمعاني وتفصيلها والتصرف فيها واختراع أشياء لا حقيقة لها. ومن
أهم أعمالها التجريد وهو ما تكتسب به الكليات من الجزئيات ولولاه كانت الصور
العقلية هويات متفرقة لا علاقة بينها وقد تكلمت عليه بالتفصيل في المقالة الثالثة من
كتاب (الحق اليقين) فليطالعها. ومنها إن التركيب جمع المراد مما علم بالتحليل والتعظيم
في صورة واحدة وهو (أما حقيقي) وهوان يجمع في الذات الحقيقية ما لها من الصفات
المختلفة في الواقع كأن تجمع الحبرة والاستدارة وانتساق الأوراق وطيب الرائحة وسائر
ما لا بد منه من الشخصيات في هذه الذات لتصوير هذه الوردية. (وأم تخيلي) وهو جمع
مختلفات لتصوير ما لا حقيقة له كأن تجمع حمرة الورد ورائحة القرنفل في زهرة الأقحوان
على نبت الزنبق فتصور نباتاً لم يخلق من قوله في مقالة (البلاغة): الكلام البليغ ما وضع
معناه ووجز لفظه وسهل وطاب للنسج. ومن أهم ما يستلزمه وضوح معناه معرفة

المخاطب معاني مفرداته. والمعنى هو الصورة الذهبية المراد بياها. فالبلغ يرسم في ذهن المخاطب مثل الصورة التي في ذهنه. فإذا أراد أن يصف إليك الإبل مثلاً صورة في خيالك بوجيز كلامه كما يصوره البارع من المصورين على قرطاسة ومثله فيه كما يحمله الماهر من نحائي التمثيل: أما غير البليغ فربما أراد أن يرسم في خيال سامعه ظيباً قصوره قرداً أو شيئاً لم يخلق بالعبارات المطولة المشوشة. ولا بد في البلاغة من مراعاة حال المخاطب فالبليغ الكلام في خطاب النبيه غير بليغ في خطاب غيره. . . . ومن هذا يعلم أن الإيجاز في البلاغة نسبي أن البلاغة في خطاب الخاصة أيسر منها في خطاب العامة ولهذا سموا ما يفهمه العامة ويرضي به الخاصة بالسهل المستعومن قوله في صدر مقالة (أبسط مبادئ الرياضيات): المسائل الرياضية عبء الأذهان وغول الزمان ولذة إدراكها خير اللذات مع أنها نتاج الآلام والأثبات وإني ممن قسم لي أن أولع بأبكارها وأسجن دهرها في دارها وشغلت وقتاً طويلاً بتدريسها وألفت وحشها وأنيسها فوجدتها من خير مميزات الأذهان. والحاملات على بغض التقليد وحب البرهان وأقوى العينات على علم الميزان (علم المنطق). ولكن رأيتها تصعب على أكثر الطلاب. وتذكر عن إدراك أولى الألباب. لتشعب العقاب. وكثرة الشعاب. فبذلت الجهد عفي البحث عن أصولها ونقاها. إلى أن يسر الله الوصول إلى حقائقها. إن كل المسائل الرياضية في المقادير الصحيحة المنطقة مبنية على ثلاث سلاسل. (الأولي) سلسلة الأعداد الطبيعية ١٢٣ الخ (والثانية) سلسلة الأعداد الوترية ١٧٥٣١ الخ والثالثة سلسلة المثلثات ١٦٣١ الخ وهي تنشئ عن جمع حلقات السلسلة الطبيعية على هذه الصورة. ١ + ١ + ٢ + ١ + ٢ + ٣ الخ ولهذه السلاسل خواص كثيرة لا محل لها في مثل هذه المقالة الوجيزة فاق - تصر على ذكر ما الحجة إليه في بيان

المراد أهالي غير ذلك مما لا يمكن استقراؤه ومعرباته ومصححاته كلف المترجم منذ صباه بالتأليف وأول مؤلفاته (الشهب الثواقب) في الجدل و (جلاء الدياجي في لألغاز والمعنيات والأحاجي) وهي رسالة لطيفة فيها كثير من منظومة ومناهج الحكماء في مذهب النشرة والارتقاء والحق اليقين في الرد على مذهب دروينو الآيات البينات في عجائب الأرض والسموات وضوء المشرق في علم المنطق وهذا آخر مؤلفاته المطبوعة. أما مؤلفاته التي لم تطبع فكثيرة منها ديوانه الشعري وقد لاحظ جمعه وتنقيحه ومراجعته قبل وفاته بقليل والأعراب في نهج الأعرابوشمس البرهان في علم الميزان وهو في المنطق اختصر منهضوء المشرق المذكور الذي طبع الكوكب المنير في علم التفسير. وعنده فذلك كثير من المؤلفات في البيان والفلسفة الطبيعية والفلسفة العقلية والرياضيات لم يحكم ترتيبها لانشغاله بخدمة غيره سحابة العمر. عدا خطبه ومقالاته التي تناقلتها الصحف وبعضها لا يزال مخطوطاً. ونشر بعض الروايات الأدبية مثلاً سفار ذات السوار في مجلة الرئيس ومختصر بعض روايات شكسبير الشاعر وغيرها. أما معرباتها فكثيرة وبعضها لم يذكر فيها اسمه ومنها: المواعظ الميلادية لسيرجنسوا عظم موديو وتفسير التوراة أس الأسفار الخمسة بزيادة تفسير له على الأصل وسكان وادي النيل ورجال التنغرافوسيرة القديس أوغسطينوسو الطريق السلطانية وأما مصححاته فليست بقليلة ولكنه لم يذكر اسمه فيها أيضاً فنحنها تصحيحاً نهج القويم في التاريخ القديم لأستاذ بورترو قاموس الكتاب المقدس للدكتور جورج بوست وساعد الدكتور أدي في جميع تفسير الإنجيل واشتهر في جميع ما كتبه بتحقيقه ورقة أوضاعه العربية وصحة تعابيره اللغوية مع بساطة العبارة ووضوحها حتى يسهل بحسن أسلوبه ما صعب من المباحث فتراها مفهومة.

٦ منزلته العلمية

صرف حياته منذ صبوته بالتدريس والجمع وتوسيع مداركه بالمطالعة وانتظم في سلك الجمعيات العلمية والأدبية وانتدب مدعواً لبعض المؤتمرات العلمية في أوروبا وعرفه الأوروبيون والأميريكيون يسسوا المدارك أما في البلاد العثمانية فكان طائر الشهرة وكثيراً ما ترجمت الصحف العثمانية التركية مقالاته وأطرته وتناقلت الصحف العربية آثار أقلامه من جرائد ومجلات وقد سافر إلى مصر سنة ١٩٠٨م ولم يلبث فيها أكثر من سنتين ترأس أثناءها تحرير جريدة الخروسة ثم عاد إلى عمله في بيروت ولقد رصد الكواكب في بيته وقرر كثيراً من شؤونها بعدما رافق أستاذه الدكتور فاندنيك يرصدها في مرصد الكلية في بيروت وتخرج على يده كثير من أدباء وأدبيات سورية ومصر كتب كثيراً في الصحف مثلاً: النجاح والجنان والمشكاة والمقتطف والنشرة الأسبوعية والصفاء والطبيب والمباحث ولسان الحال والخروسة وقلما خلت جريدة من كتاباته ولو نقلاً عن غيره لما فيها من الطلاوة واللذة والفائدة وكثيراً ما دعت الحفلات لإلقاء الخطيب فيها فطربت له أعواد المنابر وأفاد بما يلقى من منشور ومنظوم ومن مكتشفاته معادلة الجيوب ومعادلة معرفة أضلاع الأشكال القياسية الوترية من المسبع والمتسع وذو الأحدي عشرة وما فوق ذلك إلى غير نهاية وعبارات لجمع الأسرار المعنية وبعض التقارير الفلكية التي انتبه إليها بالرصد ومن آرائه التي تيقنها الرأي الدوري وصدقه كثير من علماء العصر وأشكال أجزاء المادة وهذا لم يفهمه إلا الخاصة. وكثيراً ما برهن المنطق بالجبر وأجاب على أسئلة في جميع الموضوعات بسداد رأي ودقة نظر. وعرف مؤخراً طريق رسم الأشكال القياسية وقيمتها العددية بلا تكعيب. أما معارفه اللغوية فلم تطن أقل من معارفه العلمية فإذا أورد لفظة

تثبت فيها وأشار إلى أول من استعملها مثل شبه جزيرة ملعقة ملققة كما قال الشيخ داود البصير الأنطاكي في تذكرته. وهكذا ستخرج من بطون الكتب المصطلحات القديمة وحقق آراء العصر فيها. ومن أوضاعه المشهورة المرقب وأنجر والحوصلنة البكسول والمضلع القبايجور والبخيري المدخنة وألفوارة النوفرة وأمثالها ومن تعابيره العصرية قوله: مهيع الأخلاق أوسع من فلنك نبتن وأطول من قطر أنجرة. هذه صورة الحوراني المعنوية مثناها للنقراء الكرام ليعلموا خسارة الوطن بفقد أثابه الله عداد حسناته وأعاض الأدب عنه خيراً بمنه وكرمه

7 أقواله وحكمه وآراؤه

للفقيد الكثير من الآراء الأدبية والعلمية والأقوال الرائعة والحكم الناجعة انتخب منها الآن نبذة تدل على مكانته وربما كان بعضها معرباً ومقتبساً: فمن ذلك قوله: المرأة المبتسمة أجمل من أجمل النساء المقهقهات. ريشة الإوزة أخطر من برائن الأسد الحكم على البعض لا يستلزم الحكم على الكل ولا نفيه عنه. أن أعظم الناس حرية أقواهم وأكثرهم خداعاً أضعفهم. كل شيء كم أنواع الخير وأفراده فرضنا أنه الخير الأعظم والسعادة لا يصح ما لم يكن الفضيلة وإن لم يسلم بذلك بعض الفلاسفة الأقدمين. إن الشرائع الطبيعية كلها نفع وعلّة التأذي بها جهل. إن الكبرياء قد يؤدي إلى الجنون. إن القوة الطبيعية مقسورة أبداً والفضيلة متوقفة على الاختيار. كثيراً ما يقع الناس في الخطأ لإطلاقهم الحكم على الشيء في كل الأحوال والاعتبارات. فليتوقع الراغب في كثرة العلم قلة المال أو الفقر المدقع. أنه قد يجهل العالم ما يعلمه الجاهل من آفات الانتباه توجيه الفكر إلى أمر واحد وقتاً طويلاً ومثله الاقتصار على فن واحد أو الولوع به أكثر

من سواه. متى ثار غضبك فلا تقل ولا تفعل. لا يقاس على الآراء الضعيفة إلا على سبيل
الإمكان. ولا يقاس على الآراء القوية التي لم تبلغ اليقين إلا على سبيل الظن. قليل الطعام
المغذي ونقي الهواء ومعتدل الرياضة من أمنع الحصون دون جيوش الأمراض والأوباء.
إن العنل لا تفعل بالمعلولات إلا بالمباشرة. إن من اللذات آلاماً. من الناس من يخسر كل
شجاعته وإيمانه في ساعة اضطراب. إن الذي لا يؤثر فيه الشعر البليغ خشن الطباع
سقيم الذوق. ومما ينتج من الرياء طبعاً أن صاحبه لا يصدق ولا يركن إليه وإن تكلم
بالحق وكفى ذلك عذاباً للمرائين. إن نظرك في إساءتك إلى غيرك يحمد نار غيظك من
إساءة غيرك إليك. القول الصالح حسن والفعل الصالح أحسن منه فالقول الصالح الجسد
والعمل الصالح الروح. المرأة أجمالاً تعادل الرجل فهماً لكنها تجري أعمالها على سنن
التصور أكثر مما تجريها على مقتضى المنطق. المرأة الفاضلة مهذبة الزوج والأولاد الأقرباء
والأصدقاء بالقول والفعل ولها في ذلك من التأثير ما لا تستطيعه كل فلاسفة الأرض.
اللطيف رشوة من لا رشوة له. من أفسد بين اثنين فعلى أيديهما هلاكه إذا اصطلحا.
الصدق أس الإصلاح الأدبي. إنه يستحيل على المترجم لنشعر من لغة إلى أخرى يأتي
بكل محسناته الأصلية مع المحافظة على تمام الأصلي إلا نادراً. الاختبار أثبت قبول
الإنسان التهذيب والتحني بالفضائل ولكن أكثر الناس يجهلون السبيل. استقر واستدل
واحكم. الشعر ضرب من الوحي. إن القوة على نظم الشعر موهبة إلهية يشرفها الإنسان
أو يحقرها بالموضوعات التي يستعملها فيها. إن للشعر البليغ تأثيراً في النفوس عظيماً حتى
شبهه الكثير من المشاركة والمغاربة بالسحر. نعم إنه سحر حلال يحمد به الساحر وينعم به
المسحور. العلم القليل أضر من الجهل. إياك وخداع الخيال فإنه مصدر كثير من صنوف

الضلال والخرافات الثقيل. وأخزن فيه صور الهاديات الأخلاق والحاملات على مكارم الأخلاق. إن شرف نفس الإنسان يحفظ شرف يحفظ شرف نفسه لا شرف نسبه يحفظ شرف نفسه. ما أقدرنا على الكلام وما أعجزنا عن العمل. إذا مالت نفسك إلى كتابة ما لا تريد أن يعلن بخطك فأعلم أن ذلك الميل خطر هائل لأنك بذلك تضر نفسك أكثر مما تضر غيرك. إن أصل المادة بأسرها أجزاء صغيرة لا تدركها الحواس تتجزأ في بعض الأحوال دون بعض. إن الصداقة تنتهي حيث يبتدئ الحذر إنا خلقنا نشعر بالألم لنحذر من أن نؤلم سوانا أحسن وقاية من النسيمة أن تسد أذان عنها وأن يكتب تجاهك أبداً قول بعضهم (لا تصدق كل ما تسمع) الوعظ من أسباب الحياة الجسدية والحياة الروحية لمن يؤثر فيه إلى ما يضارع هذه الروائع ويشاكل هذه النواجع.

8 مجونه وأزجاله

كان رحمه الله يترع الجون والأحاض في الأحاديث أو إحجاماً للخاطر ليس إلا على حد قول الشاعر:

أروح القلب ببعض الهزل ... تجاهلاً مني بغير جهل

أمزح فيه مزح أهل الفضل ... والمزح أحياناً جلاء العقل

ولذلك كثرت نوادره وأزجاله وأشعاره الدالة على بداهته وسرعة خاطره فكان إذا آنس من السامعين انقباضاً أو مدلاً ولا سيما في العمليات البحتة ونحوها بنكتة رائعة تستجم خواطرهم وتلفت أسماعهم وتلاعب بعواطفهم فيشيب إليهم نشاطهم ويتجدد ارتياحهم كما قال الرشيد النواذر تستحد الأذهان وتفتق الأذان وإذا استقرينا أخلاقه منذ صغره

رأيناه مولعاً بهذا الأسلوب الفكاهي وهذه الرقائق المستحبة حتى أنه لما كان يدرس في
(عبيه) في صباه سمع أحدهم يفاخر بقول الشيخ ناصيف اليازجي من قصيدة رقيقة:

كلفت حمل تحبتي ربح الصبا ... فكأنني حملتها بعض الربى

لا تجمل الريح الجبال وليتني ... كلفتها حملي فأني كالمها

فقال المترجم له: وأين يروح الشيخ بعنামته وكبرهاثم لما غار المدرسة وجاء بيروت
اجتمع باليازجي سنة ١٨٧١ قبل وفاته فقال له الشيخوما إذا ثقلت عليك عمامتي فأجابه
الخورانيوالله لو عرفت أنه سيبلغك حديث العمامة لما رأيتك إلى يوم القيامة ومن نكاته أنه
لما كتب في (أشكال أجزاء المادة) لم يفهم كلامه إلا القليلون فقال عنه بعضهم أنه كتب
في أمر لم يدركه حق الإدراك حتى أنهم قولها فأجابه الخورانيوأنا أثني عليه أصاب أم لم
يصوله كثير من أمثال هذه الرقائق التي تدل على ظرفه وبديهته ودماثة أخلاقه أما نكاته
الشعرية الجونية فمنها أنه كان مرة يروح النفس على شاطئ نهر العاصي حمص فعثر
وسقط على فتاة قريبة منه فشكت إلى أبيها فاغلظ له الكلام وكان لا يزال صبيّاً
فقال مورياً وأجاد:

ياسيد الحنم يامن نور حكمته - يهدى به الناس من دان ومن قاص

زللت في شاطئ العاصي إلى رشاء ... عن غير عمد فاضحى الظبي قناصي

وقد شكاني إليكم فاغفروا زللي ... حتى يقولوا غفرتم زلة (العاصي)

وقال في فتاة جميلة لقية متعصبة في الدين كانت تعنقه على مزاحه وتبكيه عند ضحكه

غراء شمس نهارنا من وجهها ... وهلال ليلتنا مثال جبينها

ما كان أطربني لطيب حديثها ... لو أن رقة خصرها في دينها

ودعي مرة إلى صيداء ليخطب في حفلة مدرسية فافتح بآيات غزلية وتحل لشيخوخته
عذراً بقوله

قدم الزمان وصبوتي تتجدد ... فكأنني في كل عصر أولد

شيخاً أرى بين الشيوخ وأمرداً ... في المراد مما شاب

قالت غواني الرقمتين وقد رأت ... ثلج المشيب أظن نارك تجمد

فأجبتها ما الشيب بل لب الهوى ... في الرأس مما في الحشى يتوقد

قالت مشيك أسود في ناظري ... قلت الحقيقة أن لحظك أسود

وكان مرة مبحراً من طرابلس إلى بيروت ورفيقه الخواجه موسى مخايل الطرف

الطرابلسي ومعهما فتاتين جميلتان عيسوية اسمها مريم وموسوية اسمها سارة فلما نزلا في

القارب جلست مريم على مقربة من موسى وسارة قرب إبراهيم فقال المترجم:

شمسان في القارب شنت على ... وجهيهما شمس العلى الغارة

فظل موسى رد عن مريم ... وظل إبراهيم عن سارة

وأرخ زفاف حسناء اسمها لمى إلى رجل ذميم بليد سنة ١٨٦٢م:

زفاف كالحمام لكل نفس ... به شبط الرزبا قد تجلت

وأشد في الحداد مؤرخوه ... لمى سمش بروج الثور حلت

وقال شيخ كثير المعاصي خضب شعره:

يا خاضب المبيض من فرعه=بالخزي لا يحسن هذا السواد

إن كنت ذا لب ورمت الهدى ... فاصبغه قبل الردى بالرماد

وقال في امرأة تركت مهذباً ألققره وتزوجت خشناً لغناه فعذبها:

لقد هجرت أخافهم ... قليلاً ما له يعلم
وودت بعده وحشاً ... كثير المال لا يفهم
فنالت من مخالفه ... جراحاً ما لها يلسم
وذاك جزاء تاجرة ... تبيع الحب بالدرهم

وقال في غابة دمشقية:

سقت أجفان صبك كل صدر ... من العواد أيام ألفراق
ففرخ في قلوبهم التصابي ... وجن النبت من تلك السواقي
وارتجل للائم مضمناً قوا العامة (من غير شر) لما يؤذي:

ليس لي عن صبوتي بالانسي ... ماتجلى وجه سلسي من مفر
وملام الصب شر في الموى فانصرف يا عاذلي (من غير شر)

وقال في منتزه في دمشق اسمه الجزيرة مورياً:

رأني عند شط النهر أجري ... إليها كاعبيد إلى الأميرة
فقال ما أتى بك قلت القى ... عبيدك بحر حبك في الجزيرة

وقال لعاشق يبكي ويشكو:

كثيراً ما أرى العشاق تلهو ... وأنت تظل تذكر أم عمرو
وتبكي للنوى ما جن ليل ... كأنك في الصباية (يوم قبر)

إلى كثير مما يساوي هذا الأسلوب من الجون الأدبي والنكات وللطائف والأحماضات (أما
زجلياته) فلطيفة التصرف بديعة المعاني والألفاظ ابتكر فيها أوزاناً رائقة وابتدعه أناشيد

رائعة ننتخب منها الآن ما يدل على براعته بما فمن ارتجالياته من فردية مثل فيها
السكران قوله:

اعتبروا من نحسي ياناس ... أو عوا تجوا صوب الكاس

أصل الضنا والإفلاس ... خمره في كأس الساقى

في كأس الساقى خمره ... وفي قلب الشارب جمره

لا تشرب منها عمره ... لتصبح بالدنيا راقى

ومن تفنناته قوله من قصيد طويل موجهاً بالغناء والفقه ومورياً:

ييكى (صبا) في حين بتغنى (نوى) يلي شفافك تمر خالى من النوى

أحرق قلمي بالتجافى والنوى ... ما كان ظني فيك تحرق متزلك

ما سمعت في محبوب أحرق مسكنه ... واللى عطاه أياه واللى سكنه

مين عاد من أهل الضمانة يضمته ... إذا عرف أنك أحرقته وهوالك

ومن مخترعاته الترصيع في المطلع المخمس المردوف من قصيد طويل :

يلي بنحظك بابل الأسحار ... وبصحن خدك كوكب الأسحار

سرك مصون بمهجة المفتون ... ما بتدركوا الأبواب والأفكار

سرك مصون بمهجة المفتون ... لولا دموعي والعيون عيون

ياظبي عينك سيفها مستون

قطع أكباد الغزلان ... وجندل آساد أفرسان

واستعبد مي وغزلان ... ولىلى وعاشقها الجنون

ولحظك صاب أسود الغاب ... برشق حراب وشق كبود

وهز العطف رماح الحتف ... وسل الطرف سيوف الهند

ودار الريح بغير أقداح ... وبلبل صاح بلحن العود

ومال البان وسري بان ... وكان الكان بكاف ونون

سر الهوى مدفوق ... مع دمة العاشق

يافتنة المخلوق ... ياآية الخالق

قلب ألقى مسروق ... من لحظك السارق

سر العيون ييسرق الأرواح ... ويبظهر الأخفى من الأسرار

وهكذا إلى آخر هذه الأنشودة البليغة الجامعة لتفتنات تأخذ بمجامع القلوب ومن ذلك قوله في مطلع آخر ليس بقابل بلاغة من غيره:

حنوا على الخبوس في حبس الهوى ... ضاقت علي الأرض من أربع قطار

سهرت عيوني وطال ليلي بالنوى ... من طول ليلي نسيت شو شكل النهار

سهرت عيوني وطال ليلي بالنوى ... يلي شفاقت قمر خالي من النوى

غنيت لحن حجاز وعراق ونوي ... حتى بكوا طيور السنا ولأنوا الحجار

حتى بكوا طيور السنا ولأن الصفا ... وزاد فمر الدمع عا فمر الصفا

يا حسرتي حل الكدر بعد الصفا ... وصار ألقى وصاحي وحش القفار

وصار ألقى الوحش في قعر اللوى ... ومال صالب مهجتي عني ولوى

يلي رفعتو لنظي أعلى لوا - دلوا غريب الدار عا ظبي التفاروقوله في مطلع آخر وفيه تلميح وتفنن:

آمنت برهان ما ييلزم ... أنك نبي الزهر وبدر التم

من طور خدك ما قرب موسى ... ومنين جبت ألن للمبسم
 من طور خدك ما قرب موسى ... ونارة اشترت منها السنا شمساً
 تخمين قبل مبسمك عيسى ... وحول رضاك خمر حلو الطعم
 حول رضاك بالعجل خمره ... بكاس العقيق الزابدة حمرة
 من برفها في وجنتك حمرة ... قلبي مجاهرها وصبري ألفحم
 حمرة شفافك طعمها سكر ... ممزوج بالأطياب والعنبر
 خمارها مختارته سكر ... والوف عند أبواها تلتهم

إلى أن ختمها بقوله:

إياك تطمع بعدها مرة ... في الطيف كاسات الطمع مرة
 ما كل مرة بتسلم الجرة ... خايف أنا بعد الطمع بتندم

وله مع بعض الزجليين (القوالين) نوادر ومحاضرات ولاسيما ألفران وغيره إلى كثير مما
 يماثل هذه النوادر والنكات اللطيفة الجامعة لكثير من الأنواع البديعة كالجناس والتورية
 والتلميح والتوجيه والانسجام والتفنن وغيرها من منح الكلام ولطائف النظام وكثيراً ما
 يساعد الزجل على سرد القصص والأقوال طبعية بدون تكلف أمثلة القيود مثل الأعراب
 والوزن الخاص ذلك فيجئ كنه من السهل المتنوع والمعنى المبتكر.
 عيسى اسكندر معلوف

مشاهد برلين

وعلى ذكر البحث في الأخلاق والآداب اذكر أني كنت أقجول في بعض الغابات حول
 قرية عن برلين نحو ساعة في القطار (فيزدورف) فخطرت على قلبي الموازنة بين المعارف